الفصل الثاني

من البدع المذمومة إلى البدع المكفرة

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون)

قرآن كريم

تعلم المسلمون أن يتجنبوا محدثات الأمور ، وأن يؤدوا الأمانة فى دينهم . وكل أمانة لا تؤخذ مأخذ الجد مآلها إلى عدم الأداء ، والشرك أخفى من دبيب النمل فى الغافلين ، إن لم تتيقظ له النفس دب إليها من حيث لا تستبين .

لم تكد تنقضى الأجيال الثلاثة المفضلة حتى نجمت البدع فى المجتمع ، ومنها ما تصدى له خلفاء بنى أمية فى أخريات أيامهم وبنو العباس فى مطالع دولتهم .

ولم يسلم التيار الفكرى للأمة من بدع وافدة من الخارج تهاون فى صدها جمهور أهل العلم ، فكنوا للفكر الباطنى أن تنمو بذوره وأن تمد جذورها من فرقة إلى أخرى : مثل التأويل الباطنى أو الرمزى ، وادعاء العلم اللدنى . والخوف من غير الله سبحانه وتعالى ، وتقديس رجال زعموا رفع التكليف عنهم ، وإتيانهم بالخوارق ، أو أنهم يعلمون الغيب ولا يمسهم السوء .

وكان كل جيل جديد يشهد جديداً من البدع أو تمكيناً لغيرها حتى حل زمان لم يكن يُيسر للناظر أن يبصر فيه بأساس دين المسلمين وهو التوحيد الخالص !

وإنما بلغ المسلمون هذا المبلغ دحرجة ، بعد إذ نسى الناس الله فأنساهم أنفسهم ، فأسلموها إلى جنس غالب عليهم بعد جنس آخر ، وسرت كالوباء آراء مفكرين جلهم من غير العرب ، لأن المسلمين لم يقابلوها بالفكر الأصيل الشافى من المرض ، وهو القرآن والسنة . وعلى هذا التراخى أرخى الليل سدوله ، وتباطأ تيار الشرع الدفيق فى جريانه .

والفكر الأصيل لا يتوقف دفعة واحدة ، وإنما يصاب صاحبه بالاختناق ، إذ تعجز القنوات الاجتماعية والإنسانية عن تحمله لعوامل قريبة أوبعيدة ، منها ضعف الدين أو نقص العلم وفقدان الأنفس ثقتها بما هى فيه عن يقين أو توهم ، فتستحب الدخيل عليها أو تستنيم له أو تعجز عن

مغالبته ، ويوهى جلدها تعاقبُ الزمان وانقطاع الأمل والعجز عن الجهاد والاجتهاد والرضا بالتقليد والتواكل . فتترك الشر وشأنه .

ولم يك بعيداً عن ذلك أمر الجماعة الإسلامية منذ المائة الثالثة للهجرة ، إذ أتيح للفكر الشعوبى أن يزدهر بأفول نجم العرب ، ثم بحرمانهم من الجهاد ، منذ قصر المعتصم الجندية على الأتراك . وتلاحق الغزاة على المجتمع ، وفى جعبتهم آراء شتى ومتشعبة وبقايا مترسبة من عقائد بالية لم تتطهر بعد بالإيمان الصحيح . أو حرص عليها أصحابها كشعار عنصرى لمقاومة العرب.ومن ذلك تأليه الملوك وعبادة النار والاعتقاد بوجود إلهين للخير والشر والنور والظلام والامتناع عن الزواج وشيوعية الأموال والأزواج ورجوع الموتى للحياة فى الدنيا !

فمن قبل الإسلام سادت المزدكية فى فارس وخراسان وفيها جماع مبادئ الديانات الفارسية : من أتباع مانى الذين يرون للعالم أصلين هما الظلام والنور ، وأن الحياة على الأرض جناية ، وأن لا داعى للزواج – إلى أتباع زرادشت (٥٨٣ ق . م) الذين يؤمنون بوجود إلهين إله للخير وآخر للشر ، وأضاف مزدك إلى العقيدتين السابقتين مبدأ شيوعية الأموال والأزواج . وعندما قتل مانى (٢٧٦) ومزدك (٥٢٩) شاع بين أتباعهما أنهما لم يقتلا ، وإنما رفعا إلى السماء ، وأن كلاً منهما سيعود ليملأ الدنيا عدلاً !

ولما دخل المسلمون فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان (روسيا السوفيتية الآن) فى القرن الأول للهجرة وجدوا الناس يعبدون النار ، ويعتقدون تعدد الآلهة والاتصال بالعالم الخفى وهبوط المعارف من العالم الإلهى إلى بعض الناس .

ولم يكد يستهل القرن الثانى للهجرة حتى تداول المسلمون ترجمات شتى ، منها ترجمة ابن المقفع لكتاب مزدك المسمى (دستاو) ، وترجمته لكتاب كليلة ودمنة من اللغة الهندية فيها أفكار مزدكية . واشتهرت زندقته حتى كان الخليفة المهدى يقول : (ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع) .

وكما نبه البيرونى فيما بعد على ما فى كليلة ودمنة من زندقة ، نبه على أن عبد الكريم بن أبى العوجاء – وهو عربى ملحد قتله المهدى فيمن قتلهم من الزنادقة – كان من المانوية .

ومن قبل المهدى ظهرت هذه العقائد فى أتباع أبى مسلم الخراسانى – قائد الجيش الخراسانى الذى جاء ببنى العباس إلى الخلافة – فألّهه أنصاره قبل أن يقتله عبيد أبى جعفر المنصور فى حضرته ، ثم فى أتباع ابنته وابنها فيروز ، وفى أتباع سنباذ ؛ إذ قام يطالب بدمه . وفى الراوندية الذين هجموا على أبى جعفر ليقتلوه فنجا منهم بشجاعته .

أما يحيى بن خالد أبو البرامكة وأستاذ الرشيد ومربيه ووزيره الذى فوض إليه وإلى بنيه شئون الدولة – فكان جدوده سدنة بيت النار في بلخ .

وفى يحيى وبنيه يقول الأصمعى :

إذا ذكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وكان جوستنيان إمبراطور الرومان قد أغلق « الأكاديمى » فى أثينا ، فلجأ علماؤها إلى كسرى سنة ٥٢٩ للميلاد ، فكان لهم فى « مدرسة جنديسابور » وأحدثت هذه المدرسة من نحو قرن قبل قيام التقويم الهجرى تخليطا إغريقياً فارسيا فى التفكير آل إلى المسلمين بين ما آل إليهم من العلاقات والترجمات . وقد أخذت سبيلها إلى العرب من عهد بنى أمية ؛ ولهذا لم تبعد من المسلمين آثار مدرسة الإسكندرية وفيها الفكر الإغريقى الوثنى بمثالبه واتجاهاته .

ولمدرسة الإسكندرية شأن من عهد إقليدس وأرشميدس وأفلاطون وفيثاغورث ، وفيه أصداء الفلسفة الكنسية التى تأثرت بها فلسفة أفلاطون فسميت الأفلاطونية المحدثة .

وكان للراهب القبطى المصرى الإخميمى أفلوطين أثر ظاهر فى هذه الفلسفة ذاع به التشبيه والتجسيد والغنوص .

ومن مصر القبطية عرف العالم نظامى الرهبنة التوحدية والديرانية ، وانتقل مثلها إلى فلاسفة المتصوفين المسلمين . فتأثروا بها بين ما تأثروا به من فكر باطنى وتأويل رمزى وآراء غيبية ونزعات فارسية وهندية وإغريقية وإسكندرانية .

وسنرى بعد ذلك كثيراً من الأفكار الوافدة من الخارج وآثارها لدى غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة فيما أطلق عليه المتأخرون وصف (التصوف الفلسفى) ، وفى كثير منه ما أجمع العلماء على تبديعه ، لأنه يخالف الأصول .

التصوف السلفى

أما التصوف السلفى الذى يجمع عليه المسلمون فهو زهد الصحابة والتابعين أى « السلف الصالح » . والمتصوفة عموما يعتبرون أحمد بن حنبل من أوتادهم : يقول أبو بكر البطائحى : (أوتاد العراق ثمانية : معروف الكرخى وأحمد بن حنبل وبشر الحافى وسرى السقطى . . .) .

وأحمد أزهد الناس فى مدخله ومخرجه ومسكنه ومأكله وملبسه .

يقول : (ما أعدل بالفقر شيئا) ويقول : (إنى أفرح إذا لم يكن عندى شيء) ويقول : (ما قل من الدنيا كان أقل للحساب) .

ولما أحاط به الرفاه فى قصر المتوكل تقبّض عنه واستخرج الكِسرَ من زاده ، وجاع حتى خيف عليه التلف .

يشترى بدرهم شحما . فيأكل منه شهرا ؛ فإذا استيسر له الأمر فربما اشترى بطيخة أو عنبا أو تمرا . أو ربما أخذ الكِسَر فصيرها فى قصعة وأضاف إليها الملح وأكل .

وأبو حنيفة ومالك لبّاسان .وفى الطعام يتقشف أبو حنيفة .

والشافعى يأكل ويلبس ما تيسر .

وهدى الرسول ﷺ أكْلُ ما تيسر ولبس ما تيسر . لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا وما قرب إليه شيء من الطعام إلا أكله إلا أن تعافه نفسه من غير تحريم . ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه . يرى الهلال وراء الهلال وما توقد فى بيته نار !

والفقر زهد فى المال والمظهر والطعام واللباس وخلو القلب من كل ذلك . والغنى سافل وعال : السافل غنى عن الأعراض والعوارى المستردة . والعالى غنى القلب .

يقول عليه الصلاة والسلام : (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) .

وقالت حفصة أم المؤمنين لعمر إذ فتحت الفتوح : البس الثياب ، وإذا وفدت عليك الوفود فر بصنع طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال لها : هل تعلمين أن رسول الله لم يشبع ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية . ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟ هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليه طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟ . إن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية ، فثنيت ليلة أربع طاقات نام عليها ، فلما استيقظ قال : منعتمونى قيام الليل بهذه العباءة اثنوها اثنين كما كنتم تثنونها) .

وهو القائل ﷺ : (طوبى لمن هُدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع) .

وفى زهد الصحابة يقول عبادة بن الصامت للمقوقس : (وما يبالى أحدنا أكان له قناطير مقنطرة من الذهب والفضة أم كان لا يملك إلا درهما ، لأن غاية أحدنا أكلة من الدنيا يسد بها جوعه ليله ونهاره) .

وكان منهم الأغنياء من تجاراتهم كعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة رضى الله عنهم . والهجرة والجهاد والتضحية بالنفس والمال أعظم درجة : روى النعمان بن بشير قال : كنت عند النبى ﷺ فقال رجل : ما أبالى ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ! وقال آخر ما أبالى

بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ! وقال على بن أبى طالب : الجهاد فى سبيل الله أفضل ؛ فقال عمر : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ، ولكن إذا قضيت الصلاة سألته : فسأله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم) .

ولما غاب عمير بن سعد فى ولايته أرسل عمر يستدعيه ، فأقبل وعلى كتفه اليسرى قربة ماء وعلى اليمنى قصعة ، وفى يده عصاه ، فدخل المدينة أشعث أغبر من وعثاء السفر حتى بلغ مجلس عمر ، قال : ما شأنك يا عمير ؟

قال : شأنى ما ترى ؟ ألست ترانى صحيح البدن طاهر الدم ، معى الدنيا التى أجرّها بقربها .

قال عمر : أجئت ماشيا ، أو لم تجد من يعطيك دابة تركبها ؟

قال : إنهم لم يفعلوا ولم أسألهم .

قال عمر : فماذا عملت فيما عهدنا إليك به ؟

قال : أتيت البلد الذى بعثتنى إليه ، فجمعت صلحاء أهله ، ووليتهم جباية فيئهم وأموالهم حتى إذا جمعوها وضعتها فى مواضعها . .

قال عمر : فما جئتنا بشىء ؟ قال لا ، ولو بقى لجئتك به .

قال عمر : جددوا لعمير عهدا !

قال عمير : (تلك أيام قد خلت ، لا عملت لك ولا لأحد بعدك) .

ولم يكن عمر يطيق رجلا قُعدة . بل كان يسقط من عينه الرجل إذا لم تكن له حرفة . سأل أهل الصفة : مم تعيشون ؟ قالوا : نقيم الصلاة ونتلقى الصدقات ، قال : ليس فى الإسلام سؤبة ، وأخذ منهم أموالهم وغنمهم وآتاهم جريداً وعلمهم كيف يصنعون الحصر .

وفى العام التالى قالوا له : إنا نزكى الآن ونتصدق ، فلقد صاروا أغنياء بالعمل .

ويسأل عليه الصلاة والسلام عن اللباس الحسن : أيكون من الكبر ؟ فيجيب (لا . إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس) .

ويقول مالك بن دينار : (أدركنا الصحابة وهم لا يعيب بعضهم على بعض الملابس من أعلى وأدنى ، لا يعيب صاحب الخز على صاحب الصوف . ولا صاحب الصوف على صاحب الخز) .

ويضع عبد الله بن عمرو (٦٦) الضوابط بين المسلم العادى الذى أغناه الله عن الناس وبين من عداه يوم سأله سائل : وقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها ؟ . قال : نعم ، قال : ألك

مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء ؛ قال الرجل : فإن لى خادماً ؛ قال : أنت من الملوك !

وكان أحمد بن حنبل يلبس الغليظ لكن ثوبه ليس غليظا ينكر أو رقيقا ينكر وإن كان رخيص الثمن يؤخذ بالدينار ونحوه . ملحفته تساوى خمسة عشر درهما ، ولم يكن لباسه بذاك .

وقد يرقع قميصه برقعة يقتطعها من إزاره .

وسيصبح لباسه أجود قليلا بعد إذ يبلغ السبعين ويستغنى عنه ابناه ، فيومئذ تخلص له أجرة حوانيته التى كان يؤجرها فى الشهر ببضعة عشر درهما .

وهذا الإيراد الذى يكفيه يحدد لنا حدود الزهد عنده ، إذ يسأله سائل عمن يمتلك مائة دينار : أيكون زاهدا ؟ ويجيب الإمام : « نعم على شريطة أنها إذا زادت لم يفرح وإذا نقصت لم يجزع . « ومائة دينار تربو على مائة ضعف لما يكفى أحمد شهرا » .

وابن مسعود صاحب الرسول عليه الصلاة والسلام يقول عن الغنى والفقر : (هما مطيتان ما أبالى أيهما ركبت ! إن كان الغنى ففيه البذل ، وإن كان الفقر ففيه الصبر) .

وفى هذا الزهد السلفى يتشدد المتصوفة الأول ، فيقولون : إن أصولهم ثلاثة :

١ – ملازمة الكتاب والسنة .

٢ – ترك الأهواء والبدع .

٣ – ترك الرخص والتأويلات : أى الأخذ بالعزائم .

يقولون : كان النبى ينهى عن وصل الصيام ، ومع ذلك كان يواصل الصوم ويسرده حتى يقال لا يفطر . ويفطر حتى يقال لا يصوم ! ولذلك واصل بعض الصحابة الصوم مع نهى النبى عنه ، لأنهم فهموا أن النهى للرفق ولم يروا أن يرفقوا بأنفسهم ؛ لأن ترك النفس على هواها خطر ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (حفت النار بالشهوات) .

ومن الثابت أن الصحابة تورعوا عن كثير من المباحات : كأم المؤمنين عائشة . فكثيراً ما تصدقت بالمال العظيم ، وأفطرت على أقل شىء ! .

* * *

ومع أن النهى عن التشديد صريح فى الشريعة فى كل مجال حتى صار أمرا قطعياً . فإن بعضاً كانوا يستحبون المشقة وهم العليمون أن الله يحب أن تتعاطى رخصه . ومع أن إيذاء النفس منهى عنه فالبعض يقارنون بين عمار حين استعمل التقية ، والكفار يعذبونه بالنار لينجو بحشاشته ، وبين خبيب بن عدى إذ رفض استعمال التقية فقتل .

وكان إبراهيم التيمى (الذى مات فى سجن الحجاج سنة ٩٢) يقول : إذا أخذت برخص كل عالم اجتمع فيك الشر كله .

وأحمد يروى عن محمد بن يحيى القطان : لو أن رجلا عمل بكل رخصة : يقول أهل الكوفة فى النبيذ وأهل المدينة فى السماع (يعنى الغناء) وأهل مكة فى المتعة – أوكما قال – لكان فاسقا .

ولما سئل أحمد عن الأسير يخيرين القتل وبين شرب الخمر أجاب : إن صبر فله الشرف وإن لم يصبر فله الرخصة .

فأحمد يرى الصبر شرفا والرخصة حقا .

وأقوال الصوفية متواترة على أنهم لا يخرجون على السنة : فالجنيد (٢٩٧) يقول : (علمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة) . ويقول : (الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبى ﷺ فإن الله عز وجل يقول فى حديث قدسى : وعـزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك) .

ويقول : (أخذت عن أبى الحسن السرى بن المغلس السقطى (٢٥٣) [1]، وأخذ السرى عن معروف الكرخى (٢٠٠) . وأخذ معروف عن فرقد السنجى ، وأخذ فرقد عن الحسن البصرى [2](١١٠) . ولقى الحسن سبعين من البدريين) .

ومن مشيخة الصوفية الشبلى أبو بكر بن جحدر (٣٢٧) ، وكان فقيها على مذهب مالك ، يسأل عن الزكاة فى خمسين من الإبل فيجيب : فى الشرع شاة . وفيما يلزم أمثالنا كلها . قال السائل : هل لك فى هذا إمام ؟ فأجاب : أبو بكر الصديق ، حيث أخرج ماله كله فقال لنبى ﷺ : ما خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ! وفى رواية أخرى أنه أجاب « أما الواجب فشاة . وأما عندنا فكلها لله » . قيل وما دليلك ؟ فأجاب : أبو بكر حيث خرج عن ماله كله لله . فمن خرج عن ماله كله فدليله أبو بكر . ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فدليله عمر ، ومن أعطى لله ومنع لله فدليله عثمان ، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه على »

* * *

---

(١) خال الجنيد ومعلمه وكان زميلاً لأحمد بن حنبل فى عهد الطلب ، وكان من أوائل المتكلمين فى التوحيد على طريقة الصوفية . وهو التاجر الصدوق والزاهد الأمثل . وكان يعمل وينفق أمواله على الزهاد .

(٢) يقول فيه أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى (٤٣٠) فى حلية الأولياء : (حليف الخوف والحزن والهم والشجن عديم النوم والوسن أبو سعيد الحسن بن الحسن ، الفقيه الزاهد المتشمر العابد) .

قال له رجل من عظم مهابته أنت متكبر ؟ قال : (لست بمتكبر ولكنى عزيز) وهو قاضى عمر بن عبد العزيز .

الصوف :

والصوفية لا ينتسبون لأهل الصفة أو إلى الصفاء كما يدعى بعضهم [١] بل هم منسوبون إما إلى لبس الصوف وإما إلى كلمة (صوفى) Sophia الإغريقية .

أما النسب الأول فعربى مرده إلى أن بعض الحنفاء فى الجاهلية كأمية بن الصلت قد ارتدوا الصوف ، أوكزيد بن عمرو وقد ارتدى ملابس من شعر .

وفى الإسلام لبس الصوف سلمان الفارسى وأبو ذر وأبو عبيدة . وقال أبو موسى الأشعرى : يا بنى : لو رأيتنا ونحن مع نبينا ﷺ إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لبسنا الصوف .

ثم مضى قرن ظهر لبس الصوف فيه على بعض الزاهدين ، ومنهم من تظاهر بالتقشف ، إذ لبسه ، فأصبح سفيان الثورى (١٦١) يرى لباس الصوف علامة رياء . فيقول : (لولا أبو هاشم الكوفى (١٥٠) ما عرفت دقيق الريـاء) وأبو هاشم أول من أطلق عليه وصف « الصوفى » وكان يلبس الصوف . ثم لبسه الكثيرون فى القرون التالية ، كما لبسوا الخرقة علامة على التصوف .

وفى محاربة التظاهر بالملبس يقول الجنيد منذ القرن الثالث : (إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب : ليس التصوف بالخرقة ولكن الاعتبار بالحرقة) .

وفى القرن الخامس كان الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله يلبس الصوف أحياناً ، ويفتك بالأمة !

وأما النسب الثانى فإغريقى صراح يتزعم القول به منذ القرن الرابع أعظم عقلية فى التاريخ - كما يقول المؤرخ الأوربى سخاو - البيرونى (٣٥١ - ٤٤٠) .

والبيرونى منذ ئذ يرى أن (صوفيا) اليونانية . ومعناها « الحكمة » أصل وصف (الصوفى) فى المسلمين .

ومن المستشرقين كثيرون [٢] يرون أن قرب خراسان من الهند ومن بلاد فارس ومن العرب ييسر فهم الأصل المجوسى للتصوف . والبيرونى يرى التشابه قويا بين اليوجا الهندية وبين كثير من تصرفات المتصوفة ويوازن بين أنظار اليونان ومذاهبهم وبين أذواق المتصوفة ومقولاتهم ورياضاتهم ، وينتهى إلى تشابه حكماء الهند واليونان وصوفية المسلمين ؛ إذ يشترك التصوف والديانة البرهمية فى عقيدة وحدة الوجود التى تجلت فى مقولات المتفلسفين من المتصوفة فى أواخر القرن الرابع للهجرة .

---

(١) البيرونى منذ القرن الرابع يروى قول أبى الفتح البستى (٤٠٠) :

تنازع الناس فى الصوفىّ واختلفوا ... قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف

ولست أجعل هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

(٢) منهم هورتين وتوليك وبوشيه وماسنيون وبراون وأونيرى وجولدتسيهر .

والبعض يرى آثارا من المسيحية وانتشار الرهبنة فيها والقول بالحب الإلهى قد انتقل إلى المتصوفة المسلمين من القساوسة . بل يروى المبرد فى الكامل أن راهبين قدما من الشام لزيارة الحسن البصرى (فإن صفاته كحياة المسيح) كما عبر واحد منهما عن شعوره .

ومن قبل الإسلام غلا أقباط مصر فى رهبانهم ، وازدادوا غلوا فى الذين يموتون منهم . فاتخذوا قبورهم أوثانا تعبد أو مناسبات لشد الرحال فى الأعياد والموالد . وكانت تحدث فيها انحرافات نهى عنها صلحاء المسيحية ، سنراها تنحدر إلى أجيال لاحقة فى مجتمع المسلمين .

كما قدست أجيال لاحقة الأولياء كهيئة تقديس القدماء للقساوسة ، فى حياتهم وبعد موتهم ، وأقامت التكايا كهيئة الأديرة التى أقامها أقباط مصر القدماء ، ونقلها عنهم المسيحيون فى أرجاء العالم[1] .

التصوف الفلسفى

الحق أن القرون الأولى من عمر الإسلام لم تعرف التصوف إلا على أنه الزهد والتقشف ، وإن بدأت تستمع إلى أقوال فى الحب والأذواق والمواجيد والأحوال والمقامات فى المائة الثانية ثم الثالثة .

والحق كذلك أن التصوف – كالتشيع – وجد مثابة له فى كثير من أنحاء فارس وخراسان وفيها تعاقبت دول الشيعة .

فى القرن الثانى (المائة الثانية) توفى أربعة من أشياخ التصوف هم داود بن نصير الطائى والفضل بن عياض وإبراهيم بن أدهم[2] وتلميذه شقيق البلخى (١٩٤) وأولهم عربى والثلاثة الآخرون من بلخ ومرو أو سمرقند .

ثم وجد فى القرن الثالث متصوفة عراقيون وشاميون ومصريون كأبى حمزة (٢٦٩) – تلميذ أحمد بن حنبل – والحارث المحاسبى وأبى سليمان الدارانى وأحمد بن أبى الحوارى (٢٩٥)

---

(١) جاء فى كتاب (تاريخ الحضارة المصرية) أن القديس باخميوس (٢٩٠ - ٣٤٨م) وضع مجموعات قوانين للرهبان الذين يعيشون فى دير واحد حياة فقر اختيارى وتنقل وطاعة للمرشد ، وأن الأنبا شنودة (٣٣٣ - ٤٥٠م) أقام للرهبان الديرين الأبيض والأحمر قريباً من أخميم وسوهاج وأخذهم بالنظم القاسية . ونادى بإصلاح حال الموالد حيث يقيم القبط أعياداً تقديسية تقام الصلوات فيها وتؤدى النذور ، وتنحر الذبائح ، وكانت تحتوى على فضائح فى الخيام والأسواق لا تذكرها الكنيسة ، وفى صددها ألقى الأنبا شنودة موعظته الشهيرة عند أقباط مصر وفيها يقول : (جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلى ويسجد للأمير ويطهر نفسه ، ويتناول الأسرار المقدسة ، أما من ذهب ليتكلم ويأكل ويشرب الخمر ويزنى ويرتكب الجرائم فهذا الكافر بعينه) . وكما حارب القس القبطى الموالد حارب التدجيل الطبى والسحر وبناء الهياكل على أجساد الشهداء باعتبار ذلك كله وثنية آثمة .

(٢) كان أبو حنيفة يقول إذ يغشى حلقته إبراهيم بن أدهم (١٦٠) : جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم .

وذى النون (٢٤٥) ، لكن الذين نبه ذكرهم من خارج جزيرة العرب كانوا أكثر عددا كمنصور ابن عمار وبشر الحافى (٢٢٧) وحاتم الأصم تلميذ شقيق وأحمد بن خضرويه (٢٤٠) وأبى تراب النخشبى (٢٤٥) – والسرى السقطى (٢٥٣) والجنيد ويحيى بن معاذ الرازى (٢٥٨) وأبى يزيد البسطامى (٢٦١)[1] .

وفى خواتيم القرن الثالث مات منهم محمد بن على الحكيم الترمذى (٢٩٦)[2] الذى نجمت فى مؤلفاته نظرية الولاية وخاتم الأولياء ، فدار حولها فلاسفة التصوف .

وفى الحكيم الترمذى يتمثل ميلاد فكر هجين فى المتصوفة المسلمين . وفى ذلك قول المستشرق ماسنيون إنه (كان أول مسلم صوفى ظهرت عنده آثار التغذية من الفلسفة اليونانية) .

ولم تدع مؤلفاته بعد وفاته إما لإخفائها وإما لرفضها . فأبوبكر الكلاباذى (٣٨٠) لا يذكره فى كتابه مع أنه عقد فصلا خاصا عن النبوة والولاية وفى القرن التالى ذكره القشيرى ولم ينبه على أفكاره . ويقول : (آربرى وحسن عبد القادر) : (وهذا يجعلنا نشعر بأن السبب فى إهمال هؤلاء الكتاب الذين كتبوا عن الصوفية فى القرنين الرابع والخامس لم يقتنعوا بحال الترمذى ؛ ليتخذوا منه دليلا على خطئهم فى الدفاع عن الصوفية ضد أولئك الذين يرونها مخالفة للكتاب والسنة) .

ولقد كان الحكيم الترمذى يقول : (ما صنعت حرفا عن تدبر ولا لينسب إلى شىء منه ، ولكن كان إذا اشتد على وقتى أتسلى به) .

لكن الهجويرى (٤٦٥) يتكلم عنه[3] فيطيل الكلام .

---

(١) أبويزيد البسطامى أول من استحدث كلمة السكر تعبيراً عن الحب وانتهاء إلى الفناء والتحقق بالاتحاد مع الذات الإلهية ومثله يحيى بن معاذ .

(٢) ولد فى أوائل القرن الثالث بترمذ . والمؤرخون يروون أنها كانت مركزاً للبوذية فيها اثنا عشر ديراً وألف راهب ، نفى أهل ترمذ الحكيم الترمذى من بلدهم ، فخرج إلى نيسابور . والسلمى يذكر أنه خرج إلى بلخ ، ويقول تاج الدين السبكى فى طبقات الشافعية : (ولعل الأمر كما زعم السلمى وإلا فما نظن بمسلم أنه يفضل بشراً على الأنبياء عليهم السلام) .

(٣) يقول الهجويرى ما تعريبه : (فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية ، وقد أكد هذه الحقيقة كل الشيوخ . وإن اختلفت عباراتهم فى ذلك . وكان محمد بن على الحكيم الترمذى هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف . . وسأشرح لك أقوال هذا العالم الصوفى حتى تتتبع بهذه الآراء ، وكذلك من يقع هذا الكتاب فى يده : فاعلم أن « الولى » هو لفظ جار على ألسنة الناس ، ووجاء فى القرآن وحديث الرسول ؛ فمن هذا نرى أن الله تعالى اختار له أولياء اختصهم بصحبته ، واختارهم حكاماً لملكه ، ومنحهم أنواع الكرامات . . ولما كانت أدلة النقل والعقل لهذا الدين إنما هى عند العلماء فإن دلائل الرؤية والبصيرة إنما هى عند الأولياء . والله جعل دلائل النبوة باقية إلى وقتنا الحاضر ؛ وجعل الأولياء مظهراً لهذا المعنى علامة واضحة مستمرة على نبوة محمد : فجعل الأولياء حكام هذا العالم ، واختارهم لهذا العمل ، وجعلهم لا يتبعون آثار حواسهم ، فببركة خلوتهم تمطر السماء ، وببقاء حياتهم ينبت الزرع ، وبدعائهم ينتصر المسلمون على الكفار ، وهم ليسوا معصومين من الذنب لأن ذلك للأنبياء خاصة ، ولكنهم محفوظون من الفتنة بالولاية .

هذه هى أصول مذهب محمد بن على الحكيم الترمذى . =

أما محيي الدين بن عربي فى القرن السابع فسينقل كلامه كله ثم يطوره أطوارا أبعد ما تكون عن نهج آباء الصوفية الصلحاء : كإبراهيم بن أدهم والجنيد والشبلي والسقطي وأمثالهم .

والحسين الحلاج مولود بمدينة بيضاء بفارس سنة ٢٤٤ من السابقين إلى القول بالحلول والاتحاد وفى ذلك شعره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فـــإذا أبصرتني أبصرتـــه وإذا أبصرتـــه أبصرتنـــا

وافتتن الناس بالحلاج ، فنسبوا إليه القدرة على معرفة الغيب وإحياء الموتى ، واتصلت أسبابه بالقرامطة ، وصدرت ضده الفتوى من محمد بن داود الأصفهانى - الظاهرى - فسجن وهرب ثم قبض عليه وحوكم وأعدم سنة ٣٠٩ .

لكن التيار العام للتصوف ظل يجرى فى القرن الرابع بين ضفاف الفكر الإسلامى ، مثلما شهدنا ابن حنبل فى القرن الثالث يشهد جلسة الحارث المحاسبي فيتأثر كجلاسه ويكتفى بأن ينهى صاحبه عن مجالسهم دون أن يفسقهم .

وفى أواخر القرن الرابع ظهرت مؤلفات أبى نصر السراج (٣٧٨) صاحب اللمع ، والكلاباذى (٣٨٠) صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف وأبى طالب المكى (٣٨٦) صاحب قوت القلوب .

وفى منتصف القرن الخامس ألف الهجويرى كتابه كشف المحجوب فعد للمتصوفة اثنى عشر فرقة هى المحاسبة نسبة للحارث بن أسد المحاسبي والقصارية نسبة لحمدون القصار والطيفورية نسبة لابن يزيد طيفور البسطامى والجنيدية نسبة للجنيد والنورية لأبى الحسين النورى والسهلية نسبة لسهل التسترى والحكيمية نسبة للحكيم الترمذى والخرازية نسبة لأبى سعيد الخراز والحفيفية نسبة لمحمد بن الخفيف والسيارية نسبة لأبى العباس السيارى والحلولية للقائلين بالحلول . ولم يذكر الفرقة الثانية عشرة فلعلها سائر المتصوفة .

والقشيرى - وهو من كبار كتاب المتصوفة ، ومعاصر للهجويرى - لا يحتفل إلا قليلا بالحكيم

= واعلم أن شيوخ الصوفية بوجه عام يقولون : إن الأولياء فى كل وقت وحال أقل رتبة من الأنبياء ، وإن الأنبياء أفضل من الأولياء ، لأن نهاية الولاية بدء النبوة ، وكل نبى ولى ، وبعض الأنبياء ليسوا أولياء ؛ فالأنبياء خالون دائماً من الصفات الانسانية والأولياء كذلك فى بعض الأوقات . والحال عند الولى مقام عند النبى ، وما هو عند الأولياء مقام هو عند الأنبياء حجاب ، هذه هى أصول أهل السنة والمتصوفة) .

ويرى الحكيم الترمذى أن الولاية وهى القربة إلى الله تعالى تعم كل المؤمنين وهناك ولاية خاصة عبر عنها الرسول إذ قال : (إن فيكم محدثين وإن منهم عمر) ، وهم الذين اختصهم الله بالاسم الحق وجعل لهم التصرف فى الخلق بالحق . وقد يخص الله ولياً من أوليائه بشىء ليس عند النبى . وخاتم الأولياء هو الإنسان الكامل .وهو الآخر فى الأولياء .

الترمذى ، فلو احتفل به لما أعلن انقراض التصوف السابق عليه حيث يقول : (اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم . حصلت الفترة فى هذه الطريقة لا بل اندرست بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء . وقل الشباب الذين كان لهم بها اقتداء) .

* * *

ولعل القشيرى كتب ذلك قبل أن يذيع خبر أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ - ٤٤٠) بنيسابور ، بل لعله كان يعلن ميلاد عصر جديد لطُرز فارسية مستحدثة فى ممارسة التصوف حين قال : (عندما رأينا الشيخ أبا سعيد لأول مرة لم نكن صوفية ، ولم نر صوفية . ولو لم نره لقرأنا التصوف فى الكتب) .

وآثار أبى سعيد فى تاريخ التصوف خطيرة .

فلقد تلمذ للقفال العالم الشافعى الكبير ، ثم لبس خرقة التصوف على يد أبى عبد الرحمن السلمى (٤١٢) ، ثم اعتنق مبدأ وحدة الوجود واستكثر من البدع .

فأبو سعيد أول من استعمل اللسان المرموز الذى أكثر من استعماله الفرس ، ومنهم شعراء التصوف كالعطار وجلال الدين الرومى والسنائى .

وأبو سعيد مولع بالسماع والإنشاد ، مولع بالرقص ، يراه رياضة تساعد المريد على التخلص من شهوة الجسد ! وبالإنشاد والرقص اختصت فرقة المولوية المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومى والتى خصها المستشرقون باسم « الدراويش الراقصين » .

وأبو سعيد أول من أقام عددا من التكايا أو الخانقاهات أو الزوايا ، لينقطع فيها رجال للذكر والعبادة والزهد على طريقته ، واستكثر منها فى فارس وخراسان ، وكان يشرف عليها ويعلم المنقطعين إليها .

وأصبحت التكايا[1] منذئذ ظاهرة اجتماعية فى بلدان المسلمين .

---

(١) وليس نظام التكايا إلا نسخة طبق أصل مسيحى نقلاً أقطار آسيا وأوربة وأفريقية من قرون قبل الإسلام ، وبعده . منذ قدمه أقباط مصر للعالم المسيحى فى شكليه التوحدى والديرانى فى أواخر القرن الثالث الميلادى وأوائل القرن الرابع : فالقديس أنطونيوس رائد الرهبة التوحدية والقديس باخميوس رائد المجتمع الديرانى ، ومن بعدهما ظهرت الرهبة التوحدية فى جبل أتوس بسالونيك ، واشتهرت الرهبة الديرانية فى دير ستوديوس بالقسطنطينية .

والرهبنة التوحدية تصوف انفرادى كمن يعيش حياته على عمود أو داخل كهف أو تجويف شجرة !

والرهبنة الديرانية تصوف جماعة لقراءة الأناجيل والعبادة .

يقول الدكتور رأفت عبد الحميد الأستاذ بجامعة عين شمس فى تقديمه لكتاب العالم البيزنطى : (قام الرهبان بدور كبير فى الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ، ولذلك فلا غرابة فى أن يصبح الرهبان عماد العالم البيزنطى الذين تعلقت بهم أفئدة الجمع ، –

وذاع عن أبى سعيد أنه يقول بسقوط التكليف عن بعض القوم ، بل إنه لا يلتزم فرائض الإسلام ؛ فهذه انحرافات كثيرة بدأت على يد رجل واحد فى منتصف القرن الخامس بخراسان فى الوقت الذى أعلن فيه القشيرى انقراض التصوف السابق ، وأنه لم ير قبله تصوفاً .

وجرت الرسائل بين أبى سعيد وبين ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨)[1] .

وذاع أمره بين الفقهاء فندد به ابن حزم (٤٥٦) قال : (إن من الصوفية من يقول : إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم واتصل بالله تعالى. وبلغنا أن بنيسابور اليوم رجلا يدعى أبا سعيد بن أبى الخير من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ، ومرة يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة . وهذا كفر محض) .

من غلاة الشيعة إلى التصوف الفلسفى

غلاة الشيعة :

كان لأمير المؤمنين على وشيعته شأن كبير فى فجر الإسلام . فهو بطل حروب الإسلام غير منازع . وصهر النبى الذى نشأ فى بيته ، وله الأنصار فى حياة النبى وفى عهد الخلفاء الراشدين قبله . ولما بويع له بعد مقتل عثمان خاض المسلمون معه الحروب مستبسلين فى الجمل وصفين والنهروان ، فلما استشهد التفت شيعته حول بنيه ثم تفرقت فرقا ترى كثرتها إمامة أبناء على من فاطمة الزهراء : أى بيت الحسن والحسين باعتبارهم (أهل البيت) ؛ والقلة رأت إمامة محمد بن الحنفية بن على من زوجته من بنى حنيفة. ونقلت إمامته إلى ابنه أبى هاشم . واستغل بنو العباس تلك الفرقة ، واحتجوا

= وراحوا يطلبون إليهم قضاء حوائجهم وتحقيق الآمال وهذا أصل الرهبان مكانة فريدة فى الشرق الرومانى) وينقل لأستاذ عن كتاب المؤرخ جيبون (اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية) قوله :

(وقد سلم جيل متخنث ذليل فى ورع ونقوى بحياة الكسل التى يحياها الرهبان ، ولكن لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر إلى العزلة بقصد التعبد لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلى عن علم الدولة) .

(١) من ردود ابن سينا عليه مخطوطات محفوظة بدار الكتب المصرية ١ عن الغرض من القياس وتبعية العلم له ٢ - تعلق النفس بالبدن ٣ - سبب إجابة الدعاء ٤ الدخول فى الكفر الحقيق والخروج من الإسلام المجازى . ويطلق على الرسالة الأخيرة اسم الرسالة الإرشادية وهى رد من ابن سينا على كتاب لأبى سعيد فى نفس الموضوع .

وكان أبو سعيد يعقد المجالس ويخطب على المنابر ويجادل الفقهاء مما عرض حياته أحياناً للخطر ولم يبرح بلدته (ميهنة) طوال نصف قرن إلا إلى طوس أو مرو قصبة خراسان أو إلى خراقان .

بما قيل : إنه وصية من أبى هاشم لواحد منهم ، وأرجعوا حقهم فى الخلافة إلى أنهم أهل النبى أو أهل « بيت النبى »

وعلا شأن التشيع لعلى فى أهل خراسان كراهة منهم لبنى أمية فى الشام وإيثارهم العرب على الموالى ، وأملا فى أن يتساوى الموالى والعرب . وزاد غضبهم تصالح الحسن بن على مع معاوية ثم استشهاد الحسين وأهله فى كربلاء سنة ٦٣ . وكان الحسين قد تزوج شاه زنان إحدى بنات يزد جرد عاهل الفرس ، فولدت زين العابدين فصار للشيعة رحم فى الفرس . وفى أوائل القرن الثانى نجحت الدعوة للرضا من آل محمد ، وجاء جندها ببنى العباس للحكم .

وفتك بنو العباس بأبناء على فتكا لم يسمع بمثله من قبل ولا من بعد ! وسلم الإمام جعفر الصادق بإمامته العلمية المسلّمة وانصرافه عن الإمامة السياسية كأبيه الباقر (١١٤) وجده زين العابدين (٩٤) .

وزين العابدين هو الوحيد من نسل الحسين الذى حيى بعد مذبحة كربلاء .

وعلم الإمام جعفر المسلمين من كل مذهب فهو شيخ مالك وأبى حنيفة . وأثرهما ظاهر فى جميع المذاهب . وهو شيخ جابر بن حيان أول كيمياوى فى التاريخ ، ومنه انتقل إلى العالم المعاصر منهج المسلمين فى التجربة والاستخلاص .

لكن أثر جعفر الضخم كان فى قيام شيعته بعد موته سنة ١٤٨ . بتشكيل مذهب متكامل فى فقه العبادات والمعاملات ، وطريقة الحياة والسعى للرزق ، وفى نظام الحكم ، سمى الجعفرى – نسبة إليه – أو الإمامى أو « الاثنا عشرى » نسبة إلى قول أصحابه إن الأئمة اثنا عشرة أولهم على فالحسن فالحسين فزين العابدين فالباقر فجعفر فابنه موسى الكاظم فخمسة متسلسلون من حفدته . وهو مذهب فى الفقه الإسلامى يتجارى هو ومذاهب أهل السنة ، تعمل به الآن دولة إيران وأقليات كبيرة فى دول الإسلام أو غيرها [1] .

وكذلك تعمل أقليات أخرى من الشيعة بمذهب عمه زيد بن على زين العابدين ، وهو مذهب قاعدته السياسية أن يجاهد الإمام للمطالبة بحقه . وأما فى الفقه فهو أقرب مذاهب الشيعة إلى فقه أبى حنيفة إمام أهل الرأى من أهل السنة ، مما يشير إلى تأثير زيد فى علم أبى حنيفة وانتفاع المذاهب كافة به عن هذه الطريق .

ومن الشيعة من قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه وإن أباه أخفاه فى حياته خوفاً عليه من السلطة وإن محمد بن إسماعيل صار إماماً .

---

(١) راجع كتابنا : الإمام جعفر الصادق طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وبهذا نشأت الفرقة الإسماعيلية . ثم صارت أفراقا : منها الغلاة ، ومنها المعتدلون لكن ديدنها كلها الخفاء ، اتقاء (تقيةً) للخطر ، وهي مجمعة على أن الإمام معصوم يمتاز ممن عداه . ومنهم من يؤولون القرآن والسنة لتجارى النصوص سياسة المذهب . ومن يزعمون قدرا إلاهياً فى الإمام ، وهى أفكار سبق بها مغالون آخرون ممن ألّهوا أمير المؤمنين علياً فى حياته فحدّ الأخاديد وحرقهم فيها بالنار .

ومنهم الكربية قالوا : إن محمد بن الحنفية لم يمت ! وقال آخرون - من القرن الأول - إنه سيرجع ؛ ومنهم حمزة بن عمارة ادعى النبوة وكان يقول : (من عرف الإمامة فليصنع ما يشاء) ، ولهذا أحل المحارم لجميع العارفين .

ومنهم الذين أولوا الجنة والنار والصلاة والصوم وغيرها على أنها أسماء رجال أمروا بمعاداتهم أو موالاتهم ، كاتباع أبى منصور العجلى الذى زعم أنه خليفة الإمام الباقر ، وقد صلبه يوسف بن عمر الثقفى حوالى سنة ١٢٥ [1] .

ومنهم فرقة القرامطة التى استغلظ أمرها سنة ٢٧٨ . يقولون بوجود أئمة سبعة بعد نبى عليه الصلاة والسلام أولهم على ثم الخمسة الذى أسلفناهم والسابع محمد بن إسماعيل . وهو «القائم» و«المهدى المنتظر» وهو «غائب مستتر» وهو «خاتم النبيين» وأبعدوا فى «التأويل» ليقيموا بنيانا خصوصياً لنحلتهم .

وفى حياة زعيمهم حمدان بن الأشعث (المسمى قرمط) - وقد مات سنة ٢٨٦ - قامت فتنة القرامطة انتفاضا على الدولة والأمة ، فاستولوا على «البحرين» ، وتوجهوا إلى مكة ، فنزعوا الحجر الأسود من الكعبة واحتجزوه على مدى اثنين وعشرين عاما ثم أعادوه إلى الكوفة ومعه ورقة جاء فيها (نزعناه بأمر وأعدناه بأمر) .

* * *

أرسل القرامطة داعيةً لليمن يلقب (ابن حوشب) وأرسل داعى اليمن داعياً بالمغرب أظهر المذهب الإسماعيلى ، فاستولوا على بلاد المغرب وأنشئوا مدينة المهدية فى أرض القيروان بتونس ، وأقاموا الدولة العبيدية سنة ٢٩٨ . ثم سموها «الفاطمية» نسبة إلى فاطمة الزهراء باعتبارهم

---

(١) وزعم الناورسية أن «جعفر الصادق» حيّ لا يموت حتى يظهر باعتباره «المهدى» المنتظر .

وزعم الخطابية - فى حياة جعفر - أنه نبى مرسل ، وأن النبوة دارت فى الإمامة ، وأولوا الكتاب والسنة وأحلوا المحارم ، وتبرأ منهم الإمام جعفر ، وفتك بهم عيسى بن موسى والى أبى جعفر المنصور على الكوفة وقتل أبا الخطاب .

ثم انقسم الأحياء من أصحاب هذه النحلة فصاروا ملا تعمل فى الخفاء منها البزيغية والمفضلية والمعمرية والعمرية قال بعضهم بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر وهو حجر الأساس فى الفرقة الإسماعيلية .

حفدتها[1]، وفتحت الدولة الفاطمية مصر فى سنة ٣٥٨ ودُعِيَ لها فى بغداد سنة ٤٥٠ .

وفى مصر ازدادوا حضارة والتزامًا بتراث العالم الإسلامى كافة فطرأ عليهم الاعتدال المذهبى ، وقاوم المصريون تقديس المغالين منهم لأئمتهم . وفى سنة ٤٠٨ أخرجوا من غَلَوا فى الحاكم بأمر الله إلى لبنان ، فنشأت فرقة الدروز ، ثم شاركت فى قتل الحاكم أخته (ست الملك) ، وكانت أمها جاريةً رومية نصرانية من سرارى الخليفة العزيز بالله .

وتعاظم نفوذ النصارى واليهود فى دولتهم : فخالا (ست الملك) يعينان بطريقين للإسكندرية ، حيث الكنيسة القبطية ، ولبيت المقدس ؛ ويعقوب بن كلس ذمّى أسلم وهو الوزير الذى نظم التدريس بالأزهر . ووكل الخليفة العزيز إدارة مصر إلى نصرانى اسمه عيسى بن نسطورس . أما إدارة الشام فعهد فيها ليهودى اسمه منشا .

وأصهر الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) إلى قائده الأرمنى الأصل بدر الجمالى فولدت له بنت بدر (المستعلى) ، فولاه بدر الخلافة وحبس أخاه نزارا صاحب الحق فى الخلافة ، ثم قتل نزارا ؛ فدعا لإمامته الحسن بن الصباح فى إيران .

والفاطميون أجمع يجلعون على أئمتهم بعض صفات الله سبحانه :

يقول ابن هانئ للمعز لدين الله وهو خليفة :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

ويقول المعز لدين الله إذ مات ابن هانئ سنة ٣٦٣ : (هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق) .

ويقول آخر عن الخليفة :

بشر فى العين إلا أنه ... عن طريق العقل نورٌ وهدى

جل أن تدركه أعيننا ... وتعالى أن نراه جسداً

ويشير ثالث إلى الخليفة فيقول :

هذا أمير المؤمنين بمجلس ... أبصرت فيه العقل والتنزيلا

وإذا تمثل راكباً فى مجلس ... عاينت تحت ركابه جبريلا

ويمدح الأمير تميم بن معد أخاه الخليفة العزيز فيقول فيه :

مضى من العلة الأولى التى سبقت ... خلق الهيولى وبسط الأرض والمطر

---

(١) المؤرخون مختلفون فى صحة نسب الفاطميين وفى سنة ٤٠٦ حرر صاحب الموصل – وكان تابعا للخلافة العباسية – محضراً ببطلان نسبهم وقع عليه جماعة من أهل البيت يتصدرهم الشريفان الرضى والمرتضى وهما من نسل الإمام الكاظم ، وعظماء من علماء الإمامية وقاضى القضاة ابن الأكفانى وفقهاء عظماء من جميع المذاهب فيهم الإسفراييني والقدورى وأبو عبد الله البيضاوى .

دعا الحسن بن الصباح لنزار واستقل بفرقته عن الفاطميين بمصر ، وأقام مجتمعاً إسماعيليًّا فى شمالىّ إيران ، وفرقة إرهابية سرية أفزعت الخلفاء والأمراء ، وروعت العلماء ، فمن قتلاها فى القرن الخامس الوزير السلجوقى الكبير «نظام الملك» وعلماء المدرسة النظامية .

وفى القرن السادس ولّى بعضهم فراراً من السلاجقة إلى الشام ، وشادوا قلاعاً لهم فى حماة وطرابلس . وحالفوا الصليبيين على المسلمين ، والمسلمين على الصليبيين . فقتلوا فى سنة ٥١٩ أمير طرابلس الصليبى Raymond ، ودخلوا معسكر صلاح الدين وهو يعد للمعركة مع الصليبيين ، فطعنوه بخناجرهم .

وفى القرن السابع اكتسح هولاكو معاقلهم فى إيران فتشتتوا .

والمؤرخون الفرنجة يطلقون عليهم لفظ الحشاشين Assassins من تعاطى الحشيش المخدر أو من لفظ القتلة الذى تعنيه الكلمة باللغة الفرنسية .

أما أوصاف أهل السنة لهم فهى : الملحدة والمزدكية أو التعليمية أو الباطنية .

وفيهم يقول الغزالى (٥٠٥) فى كتابه (فضائح الباطنية) :

(مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر لمدارك العلوم فى الإمام المعصوم . وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات . . . هذا مبتدأ دعوتهم ؛ ثم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع . والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها واستنكار الشرائع إلا أنهم أجمع ينكرون ذلك إذا نسب إليهم) .

ولو امتدت به العمر لرأى آثارهم فى فكر المتصوفة الفلاسفة أبلج كأضواء النهار .

فمن بعد موت الحسن بن الصباح استحدث واحد ممن خلفوه فى القرن السادس (الحسن بن محمد بن بزرك) ما سماه «عيد القيام» [1] وعيد القيامة من أعياد المسيحية - وغير أتباع الحسن الأصول الشرعية والعقائد الدينية . وقرروا تحليل المحارم ونفى الفرائض تأويلا منهم للشريعة فى خدمة الإمام (السلطان) :

فشهادة التوحيد - وهى أساس الدين - معناها - عندهم معرفة الله عن طريق الإمام ! أما الصلاة فمعناها ألا يغفل المرء أبداً عن طاعة الله ورسوله وخليفته (أى الإمام) . وأما الصوم فهو أن ينذر أعضاء جسده فى الظاهر والباطن لأمر الله الذى يمثله الإمام !

وأما الزكاة فهى أن يعطى المرء كل ما وهب الله له من مال لبيت مال الإمام ، أو يهبه - بأمر

---

(١) أقام الحسن فى ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ قبلة مغايرة لقبلة المسلمين ، ونصب إليها أعلاما أربعة لكل منها لون أبيض أو أصفر أو أحمر أو أخضر ، وأعلن أن رسولا جاءه من عند الإمام المستتر يخبره أن الإمام رفع عنهم إصر الشريعة ورسومها ، فصار اليوم عندهم يوم عيد سموه «عيد القيام» وسكروا وتهتكوا وأعنوه ممثلا للإمام .

الإمام – لأخ مؤمن !

وأما الجهاد فهو جهاد النفس والقضاء على هواها !

وأما الحج عندهم فأن تحفظ يدك عن الدنيا الفانية وتطلب الدار الباقية !

وأخيرًا فالطهارة التى تسبق الصلاة هى التطهر من فعل أهل الظاهر : أى التجاوز عن قواعد أهل السنة . والوضوء هو الرجوع إلى علم الإمام ، لأن الماء هو الحقيقة !

وعلى الجملة جعلوا الإمام هو الوسيلة بين الله والبشر وجعلوه لازمة من لوازم الوجود ، ووضعوا أركان الدين كلها فى قبضته بالتأويل الرمزى .

وقد قتل الحسن سنة ٥٥٩ وخلفه ابنه محمد ، فتابع أباه حتى مات سنة ٦٠٧ .

ثم خلفه ابنه جلال الدين حسن ، فأعاد الناس إلى الجادة . وأبى جيرانه أهل قزوين أن يعترفوا بإسلامه إلا أن يلعن صنيع أبيه وجده . فكتب ورقة جاء فيها : (ملأ الله قبورهم نارًا) وأراد أن يصهر إلى أهل أذربيجان فأبوا إلا أن يشهد خليفة بغداد بإسلامه . فشهد ، واشتهر جلال الدين فى قومه بأنه المسلم الجديد (نيو مسلمان) وخلفه ابنه علاء الدين سنة ٦١٨ ، وخلفه خلف من أهله حتى دمر هولاكو دولتهم سنة ٦٥٤ .

التصوف الفلسفى :

فإذا انتقلنا من عالم الشيعة الغلاة إلى عالم التصوف الفلسفى فنحن لا نبعد ، فالولى عند هؤلاء الصوفية يقابل الإمام عند الشيعة . وللولى العصمة ، ولكل ظاهر باطن . وبالباطن يستأثر الولى ، بل قد يزداد الصوفية فى الغلواء ، فيرفعون الولى على الرسول فى الدرجة زاعمين أنه يتصل بالله بغير وسيلة الملائكة أو لحلول ذات الله فيه ، وقد يرفعون عنه التكليف ويسبون إليه علم الغيب ! ولا يقفون فى التأويل عند حدود .

يروى الشهرستانى عن أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إمام الشيعة : (إن لكل ظاهر باطناً ولكل شخص روحاً ولكل تنزيل (تأويلا) ، ولكل مقال فى العالم حقيقة . والمنتشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى . وهو العلم الذى استأثر به على عليه السلام ، ثم ابنه محمد بن الحنفية ، وهو أفضى بذلك السر إلى ابنه أبى هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقًا) .

ويقول ابن عربى : (٦٣٨) : إن النبى ليس أعلى من الولى إلا فى نظر أهل الظاهر – أهل الشريعة – أما من اقترنت عنده حالة أخرى تقتضيها مرتبة النبوة فيعلم أن الولاية هى (علو رتبة باقية – وهى المرتبة الباقية على الأنبياء والرسل التى ليست بمحل للشرع) فالرسول جاءنا بالشرع

أما علم الأولياء فمجيئهم من الله مباشرة بالتجلي والمشاهدة وما في النبي من ولاية يرجع فقط إلى قدر نصيبه من هذا العلم . والولاية يتعلق حكمها بالله تعالى ولها الدوام في الدنيا والآخرة ، والرسالة يتعلق حكمها بالخلق وينقطع بزوال التكليف .

والفناء هو إهلاك النفس ليصعد الفاني إلى الملأ الأعلى ويلحق بالعقول المجردة . وهذا هو طريق إبراهيم عليه السلام ؛ فإنه لم يذبح شاة ، وإنما ذبح بشرية نفسه وحيوانيتها ؛ فالأولياء - بتعبير ابن عربي - هم (المستغرقون في عين الهوية الأحدية بفناء الأنية) وهم (متصلون بالمبادئ الروحانية كالعقل وما يليه) وهم (الذين آمنوا الإيمان البقيني ، وكانوا يتقون حجب صفات النفس ومواقع الكشف) .

وعندما يفنى الولي في الله (لا يكون تصرفه صادرًا عن عقل واع ؛ وإنما هي النفس الكلية المتحدة تتصرف وتصدر عن المثل الأعلى) .

والعارف إذا بلغ مقام الولاية فليس تصرفه إلا جبرًا واضطرارًا . لأن الفناء في (هوية الأحدية) قد سلبه حرية الاختيار والتصرف .

وكانت كتب الحكيم الترمذي عن الولاية وخاتم الأولياء بين يدي ابن عربي وهو يكتب ماكتبه . وإن كان قد تمادى فجمع لنفسه (كادر) الأولياء كله .

وهو القائل : إنه اجتمع هو (ورجل من المغرب فيه خاتم الولاية بمدينة فاس ، وإنه لثقي هو والأبدال السبعة في مكان خلف حطيم الحنابلة بمكة ، وإنه شهد الأقطاب وعددهم ٢٥ قطبًا في مشهد أقدس في حضرة برزخية بمدينة قرطبة) .

ثم تمادى فرأى نفسه خاتم الأولياء :

قال : (أما الولاية المحمدية وختمها فرجل من العرب) وقال في (الفتوحات) المكية : (وهو في زماننا اليوم موجود ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحق عن عيون عباده) ثم قال في عنقاء مغرب : (فإني أنا الختم . لا ولي بعدي . ولا حامل لعهدي . بفقدي تذهب الدول وتلتحق الأخريات بالأول)[1].

---

(١) ولد محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ابن عربي) بمرسية سنة ٥٦٠ ورحل إلى المشرق سنة ٥٩٨ واستقر بالشام ومكن له الأسباب اتصاله بالملوك . فملك قونية في الأناضول وهو مسلم يلقبه بالوالد . وملك الروم كيكاءوس (٦٠٩) يكتب إليه يستنصحه . ويزور الملك فيقول الملك لجلسائه : هذا رجل تذل له الأسود ، وأمر له الملك بمائة ألف درهم ، فتركها ورحل عائداً إلى دمشق حيث مات ودفن .

وعندما غزا الأتراك الشام بنى له السلطان سليم قبة وقد هم المصريون بقتله عندما زار مصر .

ومن العلماء من يكفروه كالسخاوي وتسعد النفتازاني ومثلاً على النقاري وابن دقيق العيد وفي حين وابن حجر العسقلاني (٨٥٢) وابن تيمية (٧٢٨) وابن خلدون (٨٠٩) .

وأصحاب الطرق الصوفية بغير استثناء يضعون عليا رضى الله عنه فى قمة النظام الصوفى وهم فى التعلق به أو التشيع سواء :

الحسن البصرى (١١٠) يسمى عليا (ربانىّ هذه الأمة) ومعروف الكرخى (٢٠٢) نصرانى أسلم على يد الإمام على الرضا إمام الشيعة . والحكيم الترمذى (٢٩٦) يكتب مائة وخمساً وخمسين مسألة تنبئ عن تشيعه : فالمسألة الخمسون هى (أهل بيتى أمان لأمتى) والواحدة والخمسون بعد المائة (آل محمد) ولما كبست أوراق الحلاج (٣٠٩) وجدت عنده صورة فيها اسم الله وفى داخل الكتابة تعويج مكتوب فيه (على عليه السلام) . والجيلى (٥٦٠) صاحب الطريقة من نسل الإمام على والرفاعى [1] (٥٧٠) علوى .

وابن عربى يقول عن تفسير قوله تعالى (عن النبأ العظيم) (إنه هو القيامة الكبرى ؛ ولذلك قيل عن أمير المؤمنين على هو النبأ العظيم) . .

وأحمد البدوى (٦٣٨) وأبو الحسن الشاذلى (٦٥٦) وإبراهيم الدسوق (٦٧٦) كمثلهم فى التعلق ؛ والشعرانى (٩٧٣) كذلك . وهو يروى عن (الولى على وفا) قوله : (إن على بن أبى طالب رفع كما رفع عيسى عليه السلام وسينزل كما ينزل عيسى) !

* * *

ولئن رأى المستشرقون تشابهاً بين غلواء الاتجاهات الشيعية والصوفية وبين بعض العقائد أو النظريات أو طريقة الحياة فى المجتمع الفارسى ، أو بين بعض ضروب التزهد أو التعبد الهندى — إن كثيرين يرون وشيجة جامعة بين استمداد العلم من الله مباشرة كما يزعم الشيعة للإمام والصوفية

وكتب ابراهيم البقاعى كتابين ضده أحدهما (تنبيه الغبى على كفر ابن عربى) والآخر (تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإلحاد) .

أما السيوطى فكتب دفاعا عنه (تنبيه الغبى فى تبرئة ابن عربى) .

وكتب عبد الوهاب الشعرانى كتابا فى الدفاع عنه أسماه (الكبريت الأحمر فى بيان علوم الشيخ الأكبر) و (كتاب اليواقيت والجواهر فى بيان عقيدة الأكابر) دار أكبر اهتمامه فيه حول ابن عربى .

أما الفخر الرازى والقاشانى وغيرهم كثيرون فلم يكفروه . وآخرون كالحصكفى من كبار الفقهاء يرون أنه كان يتعاطى الحشيش فخدر فأثر عليه .

وبعض يرى التجاوز عما يقوله لأنه يقوله وهو فى حالات غيبوبة عن الواقع . وهو نفسه يقول عن تأليفه (إن تأليفنا هذا وغيره لايجرى مجرى التأليف ، ولاتجرى فيه مجرى المؤلفين ؛ فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره . . . ونحن فى تأليفنا هذا ليسا كذلك . إنما هى قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية ، مراقبة لمايفتح لها الباب . فقيرة خالية من كل علم لوسئلت فى ذلك المقام عن شىء ماسمعت لفقدها إحساسها ، مهما برز لها من وراء ذلك الستر باهرت لامتثاله وألفته على حسب ماحُدّ لها فى الأمر) .

(١) إليه تنسب الطريقة الرفاعية وهم قوم يذكرون الله ثم قوم منحرفون يطعنون أنفسهم بالمدى ، ويأكلون النار والأفاعى . ليبرهنوا للناس على أن النفس بيد الله تصبح فى غيبة تفارق البدن فلا تحس الألم .

للولى ، وبين مزج الإلهام الروحى بالنظر العقلى عند الإغريق . وهى الأفلاطونية المحدثة كما صاغها أفلوطين . وقد عرفها المسلمون من ترجمة قام بها عبد المسيح بن ناعمة الحمصى وسموا أصحابها مدرسة الإسكندرانيين . كما سمى الشهرستانى أفلوطين (الشيخ اليونانى) ، ونقلها المتصوفة حيث قالوا : إن الحقيقة العليا لا تدرك بالفكر ولكن بالمشاهدة فى حالة الغيبة عن النفس وعن العالم الأرضى .

وما هى إلا كلمات (الشيخ اليونانى) :

(لنعتزل العالم الخارجى ، ونتوجه إلى داخل أنفسنا ونجهل كل شىء حتى كوننا نحن الذين نتأمل ؛ فمن داخل النفس واتصالها بالملأ الأعلى تكتسب المعارف الحق) .

والمعرفة باليونانية Gnosis غنوص ، وهى كلمة تطلق منذ القدم على المعارف التى تكتشف بالحدس الناشئ عن اتصال العارف بالمعروف عن غير طريق البرهنة والاستدلال أى الطريق العلمى . والعرب يستعملون لفظ الغنوص ليعبروا عن المعنى اليونانى .

يقول ابن عربى : (إن للعلم الإلهى ثلاث طرق هى الذوق والكشف وهى طريق العلم الكامل ، ثم البحث والنظر ، ثم الإخبار الذى خص به الأنبياء) ثم يقول : (والإخبار أيضًا يقصر عن إدراك ما لا ينال إلا بالذوق) .

والسهروردى صاحب عوارف المعارف يعترف بأن بعض نظريات المتصوفة وهى الصفاء للوصول إلى الله مأخوذة من الفلسفة الإغريقية وبأن الوحدة والحلول لها جذور فى المجتمع الفارسى قبل ظهور الإسلام .

يقول : (خميرة الفيثاغوريين وقعت إلى أخى أخميم[1] . ومنه نزلت إلى سيار تستر وشيعته . أمّا خميرة الخسروانيين فهى نازلة إلى سيار بسطام . ومن بعده إلى فتى بيضاء . ومن بعده إلى سيار آمل) .

وأخو أخميم هو ذو النون المصرى ، وسيار بسطام هو أبو يزيد . وفتى بيضاء هو الحلاج . وسيار آمل هو أبو الحسن الخراقانى (٤٢٩) .

---

(١) كانت فى دير أخميم من صعيد مصر (محافظة سوهاج الآن) مدرسة عظيمة نبه فيها أفلوطين وزوسيموس والأخير قد ذكره الرازى الطبيب فى القرنين الرابع والخامس الهجريين مما يشير إلى انتفاع العلماء الإسلاميين بكتب هذه المدرسة التى تحويها الأديرة المصرية وتبارها يصب فى مدرسة الإسكندرية . وذو النون من أوائل الذين فلسفوا الصوفية . وله نظريتان فى المعرفة والمحبة تضاهيان نظريات الأقدمين ، فالمعرفة عنده معرفة عامة المؤمنين أو معرفة الخاصة من المتكلمين والحكماء ، ثم معرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم ، وهى أرقاها وأوفرها حظا من اليقين .

ولما سئل عن كيفية معرفته بربه قال : (عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى) والمحبة عنده تيار متبادل بين العبد وربه يشعر فيه العبد باستغراق ذاته فى ذات الله . وهذا هو الحب الإلهى الذى يجب على من تحقق به ألا يتحدث عنه .

وأثر النظريتين ظاهر فى التسترى والنخشبى وأبى عبد الله الجلاء وأبى سعيد الخراز (٢٧٧) وآخرين .

والباطنية من الشيعة يوسعون مدى الغنوصية لتشمل الأئمة وكبار الدعاة .

والمتصوفة أمثالهم يجعلون الأولياء مجعل الأئمة ويرتبونهم رتباً وأنساقاً ، من أدنى لأعلى : « فالصالحون » كثيرون ليخالطوا العوام . و« النجباء » قليل ثم « الأبدال » أقل .

وكل من الأبدال منفرد بقطر من الأقطار وقد يوجد اثنان فى قطر .

وأما « الأوتاد » فواحد فى اليمن وثان فى الشام وثالث فى المشرق والرابع فى المغرب .

وأما « القطب » فواحد يديره الله دوران الفلك فى السماء وهو « الغوث » : « يُرَى عالماً كجاهل ، أبله كفطن ، تاركاً آخذاً ، قريباً بعيداً ، سهلاً عسراً ، آمناً حذراً ! » .

وما دام الغوث عالماً كجاهل ، أبله كفطن — فلا بدع أن يكون لسائر الصوفية شطحات أو همهمات ، وأن يعيرها أتباعهم أسماعهم . يستقصون فى كل هينمة معنى ، وفى كل همهمة مضموناً ؛ فلعل ثمة العلم اللدنى !

وفى القرن الرابع يحدد الكتانى (٣٢٢) العدد فيستكثر ، ويستحدث درجات أخَر . ويعين مقار العمل ويعين العمل : (فالغوث واحد ، والعمد أربعة ، والأحبار سبعة ، والأبدال أربعون ، والنجباء سبعون ، والنقباء ثلثمائة ، والنقباء بالمغرب ، والنجباء بمصر ، والأبدال بالشام ، والأحبار سيّاحون فى الأرض . والعمد فى زوايا الأرض . والغوث بمكة . فلا يتم الغوث الدعاء حتى تجاب الدعوة) .

* * *

ولئن نجح غلاة الشيعة هنا أو هناك زماناً ، أو أفلح المعتدلون منهم فى نشر المذاهب العلمية وإقامة دول حملت رايات الإسلام فى أرجاء العالم ، إن أثر الغلو الصوفى فى سلوك الجماعات كان مثبطاً ، بما فيه من تخليط يؤثر السلبية على الإيجابية ، أى العمل ؛ والمجهول على المعلوم ، والباطن على الظاهر ، والإدهان للحكام على النصح لهم ، أو تعمل تبعات الإصلاح بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وإذا كان من صلحاء الصوفية من عرفهم سهل بن عبد الله التسترى (الصوفى من صفا من صفائن الكدر وخلا من الفكر ، وانقطع عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر) فيجعلون الاعتزال والانقطاع عن العمل منتهى همتهم ، إن العامة عظم الأمة لا تقدر على أن تنقطع عن العمل أو يستوى عندها الذهب والحصى . أما الخاصة فأعجل إلى الدنيا من العامة ، ومن نصحاء المتصوفة ومن واجب الجميع عمارة الدنيا .

هكذا تخلف من التراث الصوفى طقوس عزلة وانقطاع وتسلب ، ومقولات أغرقت الأتباع فى بحار غريبة الأغوار من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين ، وسال مداد كثير من الكلام عن

علم القلوب فى مقابل علم الفقه ، والباطن فى مقابل الظاهر ، أو الحقيقة فى مقابل الشريعة . فجعلوا القلوب والبواطن والحقائق خصيصتهم ، أما علم الفقه الذى يتداول أحكام الشريعة فهو علم أهل الظاهر .

الأولياء :

وبعد : فمن هم «الأولياء» الذين ورد فيهم قول الله جل ثناؤه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) ؟

لقد ورد لفظ الولى فى تسعين موضعاً بالقرآن ومنها أولياء الله وأولياء الشيطان . وكذلك ورد اللفظ فى السنة . وما دام قد ورد النص فى الكتاب والسنة فيتعين البحث عن معناه فيهما ، والحق أن المنقول والمعقول قد وضحا المعنى كل توضيح .

أما المنقول :

فالإمام الطبرى (٣١٠) – كبير المفسرين بالمأثور – يفسر الأولياء بأنهم أنصار الله الذين وصفهم بقوله : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

والفخر الرازى (٦٠٦) – كبير المتكلمين – يرى أن القرآن والسنة والآثار قد حددت التعريف بهم . ففى القرآن أنهم هم (الذين آمنوا وكانوا يتقون) ، وفى السنة رواية عمر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : (إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله . قالوا : يا رسول الله خبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فإنا نحبهم لذلك ، قال : هم قوم تحابوا فى الله بروح الله ، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها . وقرأ هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وأما المعقول :

فالولى معناه القريب بالاستغراق فى معرفة الله والإيمان بقدرته والثناء عليه وطاعته .

وليس القرب قرب مكان ، فهذا تجسيد .

وهو يحصل من الجانبين . والله يقول : (الله ولى الذين آمنوا) .

والمتكلمون يقولون : إن «ولى الله من أتى بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ، بالعمل الصحيح ، الموافق للشريعة .

فهذه كل طرائق العلم مجمعة على أن الأولياء كما قال تعالى هم : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

لكن الصوفية يعلقون كثيراً على حديث الولى :

فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : (قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال من عادى لى ولياً

فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلىّ مما افترضته عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنّه) .

والمتفلسفون منهم يرتبون على الحديث اتحاد ذات الله تبارك وتعالى مع ذات الولىّ . والحشويون يتصورون ذات الله كذوات الناس لها عين وأذن ويد ورجل : والحشويون يعيشون بين الجماهير ، والمتفلسفون يسقون الناس شراب الكفر فى آنية الأنبياء كما يقول ابن تيمية .

ولو استعمل الفريقان فى التفسير منهج السلف لفهموا المقصود كما فهمه رسول الله وصحبه وتابعوهم بإحسان . وهى الأجيال الثلاثة التى فضلها رسول الله واختارها الله تعالى ليبذر بها وتنمو فيها بذرة التوحيد فى الوجود .

ولو استعملوا منهج الآخرين لأيقنوا أن المقصود رحمة الله وتأييده .

ولو استعملوا فقه المسلمين فى الإيمان لرأوا أن أداء الفريضة هو المؤهل للقرب ، وأن إضافة النوافل درجة فضل .

فالحديث بنصه وفحواه يهدم كل تفسير باطنى يغاير المعنى الجلى للسان العربى الذى ورد به النص .

الكرامات :

يقول القشيرى (٣٧٦ - ٤٦٥) : إنه ما دامت الولاية مرتبطة بفضل الله وتوفيقه فالأصل أن الولاية لله (يورد الأرواح مورد المكاشفة بأنوار المشاهدة فيفنون عن الإحساس بالنفس ، ويورد الأسرار ساحات التوحيد ، وعند ذلك الولاية لله فلا نفس ولا حس ولا قلب ولا أنس بل استهلاك فى الصمدية وفناء بالكلية) .

ويرى القشيرى جواز أن تكون للولى كرامات . وهو القائل « قبر معروف (الكرخى) ترياق مجرب » .

وابن حزم إمام أهل الظاهر (٣٨٤ - ٤٥٦) باقعةُ عصره فى الفقه والأدب ولغة العرب ، معاصر للقشيرى ، ينكر أن تكون للأولياء كرامات بمعنى الخوارق وكمثله الإسفراييني (٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م) معلم القشيرى فى الفقه[1] يقول :

(المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد لغير نبى . وللأولياء كرامات شبه

---

(١) الإسفراييني هو أحد الذين بنى لهم الوزير نظام الملك المدرسة النظامية التى تعلم فيها القشيرى والغزالى وإمام الحرمين وغيرهم من عظماء العلماء .

إجابة الدعاء ، أما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا) .

وابن فورك أستاذ آخر للقشيرى يقول : (المعجزات يؤمر الأنبياء بإظهارها ، أما الكرامات فالأنبياء مأمورون بسترها وإخفائها) .

وجملة الأمر عند أهل السنة أن (كل خارقة تحدث يتعين عرضها على الشريعة : فإن ساعدت قبلت) .

فالكرامة الحقيقية للولى ليست فى الفناء فى ذات الله وحلول الله فى الولى ؛ فهذا يناقض أصل الإسلام وهو التوحيد الخالص ؛ وإنما الكرامة هى الكرامة المعنوية وحدها ، وقد لا يدركها من وقعت له وإنما (تظهر فى رقيه الروحى فى مدارج السلوك إلى الله) .

وإبراهيم بن أدهم (١٦١) يقول : (الأخيار الأبرار يغضب الله لغضبهم ويرضى لرضائهم) .

وسهل التسترى (٢٨٣) يقول : (أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك) .

ولما قال له قائل صوفى : ربما أتوضأ فيسيل الماء بين يدىّ قضبان ذهب وفضة أجاب سهل : (أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة ليشغلوا بها ؟) .

وقيل لأبى محمد عبد الله المرتعش (٣٢٨) : إن فلاناً يمشى فى الهواء فأجاب : (عندى : إن مكنه الله تعالى من مخالفة هواه أعظم من المشى فى الهواء) .

الإسلام إيجابى :

والولى فى نصوص القرآن والحديث شخصية إيجابية كما يتجلى من أحاديث عمر والنعمان بن بشير وغيرهما . ولا مراء فى أن من كبار الأولياء صحابة النبى . ومنهم الذين هاجروا والذين نصروا والذين جاهدوا والذين بشرهم الله ورسوله بأن لهم الجنة . لم يتماوت واحد منهم تماوت المتصوفين أو الحشويين ولم «يفن» واحد منهم عن نفسه فناء المتفلسفين أو يدع الغيب أو يزعمه له المرجفون . أو يلبس خرقة المتصوفة أو يرتفع له صوت عند الذكر بالغناء أو «بالتغبير» أو اصطناع الهيئات أو الانطواء فى تكية .

شتان ما حال الصحابة ومقامهم وأحوال غلاة الصوفية !

الأولون فى جهاد واجتهاد والآخرون مبدّعون أو متقعدون أو مغربون . ومنهم من يصف أمرهم صوفىّ سئل عن مشايخه كيف كان يجدهم وقت السماع ؟ فأجاب : (مثل قطيع الغنم إذا وقع فى وسطه الذئاب !) .

وشتان بين ما جوع النبى وصحبه إذا لم يجدوا طعامهم ، والتجويع والتعرية اللذين يقول عنهما أبويزيد البسطامى (٢٦١) : إنه وجد المعرفة (ببطن جائع وبدن عريان) . ويقول آخر : (أكل

درهم من اللحم يقسّى القلب أربعين صباحاً) .

ورسول الله ﷺ يقول : (من أصابه جهد فى رمضان فلم يفطر فمات دخل النار) ويقول : (إن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده فى مأكله ومشربه) وكان عليه الصلاة والسلام يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة . وهو القائل : (نفسك راحلتك فارفق بها حتى تبلغ الثرى) .

والقائل : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

وكان الحسن البصرى يشترى كل يوم لحماً .

ويضيف ابن الجوزى حكم الفقه إذ يعوّق التجويع العبادة فيتساءل : (أى قربة فى هذا الجوع المعطل للعبادة ؟ فالمرء إذا كان يتقوى على الصلاة بالطعام يلحق الطعام بالعبادة لأنه يعين عليها) .

يروى السهروردى (٦٣٨) أن الترويج عند الصوفية انحطاط من العزيمة إلى الرخصة ، وأبو سليمان الدارانى يقول : (ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته) ، والشعرانى يروى قولاً لرباح بن عمرو القيسى (لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، وأولاده كأنهم أيتام ، ويأوى إلى منازل الكلاب) .

شتان ما هذه الأقوال وقول رسول الله ﷺ : (أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأصلى ، وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى) .

والزواج يحتمل الأحكام الخمسة [1] . والرهبنة من طقوس المسيحية ، وتعطيل للمسلمين ، وتقليل للصالحين ، ومنع للإحصان ، وتعذيب للفطرة ، وإضعاف عن العمل فى الدنيا للآخرة .

وابن عطاء السكندرى (٧٠٧) صاحب الحكم يرى الخلوة من المجاهدات التى تهيئ النفس (لأحوال الوجد والفناء والمعرفة) ، وذو النون يقول : (لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من العزلة) ، والقشيرى يقول : (لا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق) .

وفى هؤلاء يقول ابن الجوزى (٥٩٧) : إن ذلك المعتزل (لا يتعدى نفعه عتبة بابه والعالم نفعه متعد . وكم قد رد إلى الصواب من متعبد) .

شتان ما يدعو هؤلاء له الأمة وما يدعو له رسول الله أمته .

قال أبو أمامة (خرجنا مع رسول الله ﷺ فمر رجل بغار فيه شىء من ماء ، فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى عن الدنيا ، وذكر ذلك للنبى ﷺ فقال

---

(١) الزواج فرض إذا قدر الرجل على المهر والنفقة وواجبات الزوجة عليه وتيقن أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو واجب إذا قدر على كل ذلك وخاف أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو مندوب إذا قدر على كل ذلك وكان فى حالة اعتدال لا يخاف أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو مكروه تحريما إذا خاف ولم يتيقن أنه يظلم زوجته إذا تزوج ، وهو محرم إذا تيقن أنه إذا تزوج يظلم زوجته ولا يقوم بواجبات الزوجية .

له : (إنى لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة ، والذى نفس محمد بيده لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها. ولمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته ستين سنة) .

والاعتزال وعدم العمل وعيش المرء من كسب غيره وانتظار رزق لا يسعى المرء له – كفر لنعمة العافية ولخلافة الإنسان فى أرض الله .

وشتان ما هؤلاء الذين يتراصفون فى التكايا نياماً وقعوداً والذين يتراصون فى الصفوف للزحوف .

* * *

وابن خلدون (٨٠٨) قاض يقدر على الفصل فى النزاع . ومؤرخ يدرك روح التاريخ . فيعلن حاجة القرن التاسع الذى عاش فيه ، بل حاجة كل القرون . إلى العودة إلى الأمر الأول بمزيد من الدراسة للرسالة والسيرة والسنة . ويكرر وصية أشياخه له لتكون وصية للأمة منه بالترياق الحقيق الذى يفلح به كل مصلح . وهو فهم سنة الرسول والعمل بها . فيقول :

(ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون : « شرح كتاب البخارى دين على الأمة » يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار)[1] .

ويقول عن علم الحقائق : (إن هذا العلم – كما رأيته – غير واف بمقاصدهم التى حوّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها) . ثم يقول عن الصوفية الفلسفية : (أما علومها الطبيعية وما يستعمله أصحابها من البراهين فليكن الناظر فيها متحرزاً من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبنّ أحد عليها وهو خال من علوم الله) .

أما آراء المحدّثين والفقهاء فقد سبق بها ابن الصلاح (٥٧٧ – ٦٤٣ هـ) – (١١٨٩ – ١٢٤٥ م) حيث قال : (الفلسفة أساس السفه والانحلال) .

ولم ترع الجماهير سمعها فى حياة ابن الصلاح لمن أنبهوها على الانحلال ، بل أتاحت للمتفلسفين المتصوفين البحبحة والتمكن بذيوع مقولات ابن عربى (٦٣٨) وعبد الحق بن سبعين (٦٦٧) وعمر بن الفارض (٦٣٢) وكان به سكر من الحب الإلهى . وشتان ما شعره وشعر رابعة العدوية ؛ فهذا شعر القرن الثانى للهجرة وذاك شعر عصر ابن عربى .

---

(١) إذا عرفنا أن للبخارى اثنين وثمانين شرحا وسلم خمسة عشر (وهذان هما الصحيحان) بخلاف سائر شروح كتب السنن الكثيرة أمكننا أن نقرر أن المطلوب مزيد من الشروح فى كل عصر . ليفهم الناس حدود الشريعة وحدودها ويدركوا مبلغ ماتستهدفه فى دنياهم فى كل عصر ومصر .

وعصر ابن عربى هو الذى نزل فيه الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ وردهم المصريون سنة ٦١٨ ، فكروا كرة أخرى فى سنة ٦٤٧ فأسر الملك لويس التاسع سنة ٦٤٨ (١٢٥٠ م) ثم أفرج عنه بفدية .

وعصر ابن عربى هو الذى دخل فيه هولاكو بغداد فى صفر سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) واحتل الشام بعدها بأشهر . ولم يرد جيوشه عن سائر بلاد الإسلام إلا هزيمته فى عين جالوت فى رمضان سنة ٦٥٨ = سبتمبر سنة ١٢٦٠ .

* * *

فى عصور التخلف هذه يقتصر الفقهاء على التقليد ، وينتقل تقليدهم إلى العامة فيصير إيماناً بهم . وطاعةً كلها العبادة لهم . ويخضع الجهلاء لأضاليل المتفلسفين فى أى فن فيعبدون أشخاصهم وأفكارهم .

ويوم يعبد الناس غيرهم يكونون عباد أصنام ، وعبدة الأصنام أدنى من معبوداتهم .

والناس أعجل فى الخضوع فى أيام المقاحط والمحن العامة والخاصة ، كمثل تعلق المرضى بوهم والغرق بقشة . والغرثى بسراب .

وكلما طالت عصور التخلف والضعف استحكمت البدع ونفقت سوق الدجاجلة بدعوى العلم اللدنى لديهم أو لدى غيرهم ، يحشدون لها الأدوات من الأشخاص والأشياء لتصديقهم .

وكثيراً ما استرعت عبادة بعض الناس أنظار العامة فنسبت إليهم ما لا يدعونه . ومن فلاسفة التصوف أنضاء عبادة نسب إليهم الناس أكثر مما تصوروه : أو تجاوزوا عن غلواتهم من أجل تقواهم .

والناس من شهواتهم الدنية أو حاجاتهم الدنيوية أو حالاتهم المرضية يستبدلون الأمانى بالحقائق والأخيلة بالواقع . فيكفرون وفق شهواتهم .

وليس عجيباً أن ينعكس سلوك الرعية على أفهام أولى الأمر ، علماء وحكاماً ؛ إذ تصبح البدع تقاليد للجماعة يعز الخروج عليها إلا من المقتدر . والحكام أحوج إلى الجماهير ومجاراتها إذا لم يكونوا منها ، ليسر عليهم أن يستسخروها ، أو يسخروا منها .

* * *

هكذا تمسى الجماعة صورة مهزوزة أو خيال ظل شائه الأصل ، تكتنفه الأوهام من كل جانب ، فتمشى مشى المسحور فى برزخ لا هو الخيال ولا هو الحقيقة . وتزداد الفرجة بين عقيدة الأمة وسلوكها ، فلا يكاد يصلها بالعقيدة إلا الاسم ، أو يبقى من العمل بالدين إلا التزام الطقوس . ومن السعى الواجب للحياة الكريمة إلا القناعة بأدنى الجهد . ثم لا تجد الجماعة فى علمائها غنية ، أن

لم يبق فيهم قدوة ، فتؤثر الحياة المتاحة لها من الحرام أو الحلال . وتنكبّ على وجهها فى تراث الوثنية ، تدليها الغرائز ، وحاجات العيش من يوم ليوم ، وتتعاورها الرذائل ، وتسرى المعاصى سريان النار فى أمتعة بالية .

والمعصية شجرة تنبت حولها أمثالها ، ومن عقوبة السيئة ما تنبته من سيئة مثلها . فتشيع الفاحشة . ولا تقتصر الفتنة على الذين ظلموا خاصة .

وهذه حال نبه عليها رسول الله ﷺ :

قالت عائشة : دخل على رسول الله ﷺ وقد حفزه النفَس ، فعرفت فى وجهه أن قد حفزه شىء . فما تكلم حتى توضأ وخرج ، فلصقت بالحجرة . وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعونى فلا أجيبكم وتستنصرونى فلا أنصركم وتسألونى فلا أعطيكم) .

ولم يشارف جيل الصحابة ختامه حتى سمعنا أنس بن مالك يقول للتابعين : «إنكم تعملون أعمالاً هى فى أعينكم أدق من الشعر ، وإن كنا نعدها فى عهد رسول الله من الموبقات» . وسمعنا الحسن البصرى (١١٠) يقول عن الرافهين المتجبرين : (إنهم – وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين – إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه) .

وفى عصر الحسن كان الناس يستمعون للنصحاء ويتذاكرون الواجب . حتى حكام بنى أمية روى عنهم الإمام أحمد فى المسند «وجد فى خزائن بنى أمية حبة حنطة بقدر نواة التمرة وهى فى صرة مكتوب عليها : (هذا كان ينبت فى زمن العدل) .

ثم تلاحقت أجيال من البدع تلاحق أجيال الناس فى نسيان الله . وهو القائل لهم سبحانه : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون) .

وأول عقوبة للعصاة فساد أنفسهم وزوال نعم الله عليهم : يقول على بن أبى طالب : (ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة) .

وفى المسند من حديث ثوبان قوله عليه الصلاة والسلام : (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) . ومن ثم يجوع الناس بذنوبهم ويأخذ الفساد فى الازدياد على حسب ما يُبعد الزمن من القرون الأولى :

لقد لعن الرسول الواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة . ولعن الخمر وشاربها وساقيها والمخنثين من الرجال والمسترجلات من النساء

واللابسات لبسة الرجال ، والسحرة - والولاة الظلمة وآكل الربا والراشي والمرتشي والرائش [1] والمحلل والمحلل له وزوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج .

وأصبحت اللعنة عامة منذ أصبحت الجماعة تقبل ذلك كله ، ويعمل بعضها كثيراً منه ، دون إنكار عليه وربما مع الرضا عنه .

بل أصبح من الناس من يسجدون لغير الله سبحانه . ويطوفون بغير بيته المبارك . ويقبلون أحجاراً وقبوراً . ويستلمون أركانها ويحلفون بغير خالقهم ويمجدون صفاته . وغيرت البدع - مكفرات أو مضللات - وجه المجتمع فوجد فيه من يدعي ولاية الله ورفع التكليف عنه ومن تنسب إليه الكرامات وتطلب منه الشفاعات .

على هذا التيه الكريه من المعاصي ثار ابن تيمية . وقضى عليه الجهلاء - في ثياب علماء - بالسجن مرة بعد أخرى ، من أجل إيمانه الصحيح ، لأنهم كانوا في موضع الخصم والحكم .

---

(١) الرائش : السفير بين الراشي والمرتشي .